المحاضرة1: خصائص العلوم في الغرب الإسلامي (عوامل الازدهار)

1/ تعريف العلم:

أ/ لغة:

ورد لفظ العلم ومشتقاته بصيغ عدة في المعاجم اللغوية منها ما ذكره الفراهدي الخليل بن أحمد في كتاب"العين" قوله: رجل عالم وعليم من قوم علماء؛ ويُقال إذا بولغ في وصف الشخص بالعلم علاّمة؛ وجاء في كتاب" القاموس المحيط" للفيروز آبادي أيضا"علم علمه علما أي عرفه، وعالم وعليم جمع علماء؛ وعلمه العلم تعليما وأعلمه أياه فتعلمه؛ وعليه فالعلم هو معرفة العلوم من الذوات والصفات والمعاني على ماهو عليه؛ والعلم نقيض الجهل؛ وعلمت الشيء أعلمه علما عرفته أي تعلمه وتفقهه.

ب/ اصطلاحا:

تعدد مفهوم العلم في الاصطلاح واختلف على مر العصور باختلاف مفاهيمه وقيمه عند العلماء؛ ومنها أنّ العلم هو:"**الاعتقاد الجازم الثابت المطابق للمعرفة إذ هو صفة في تحديد مفهومه توجب تميزا لا يحتمل النقيض**"، ومن التعريفات أيضا بأنه:"**مجموعة المعارف الإنسانية التي من شأنها أن تُساعد على زيادة رفاهية الإنسان وتُساعده في صراعه في معركة البقاء وبقاء الأصلح**".

وعرّفه البعض أيضا بأنه:"**هو المعرفة، معرفة الله ومعرفة نبيّه ومعرفة دين الإسلام بالأدلة**".

2/ أهمية العلم وتصنيفه:

العلم من أفضل الأعمال الصالحة وهو من أفضل وأجمل العبادات التطوعية؛ وكفى بالعلم شرفا أنّ الله تعالى وصف به نفسه ومنحه أنبياءه وخص به أولياءه وجعله وسيلة إلى معرفته، قال تعالى: ﴿**قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ**﴾؛الزمر، الآية9. ولمكانة العلم في الإسلام فقد ذُكر لفظ العلم ومشتقاته 865 مرة في القرآن الكريم؛ وأول فريضة في الإسلام في قوله تعالى:"**إقرأ**" وفي الحديث النبوي عن خير العلم في الدنيا والآخرة قوله:"**إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلاّ من ثلاث: صدقة جارية، أو علم يُنتفع به، أو ولد صالح يدعو له**"؛ أي أنّ أجر العلم يستمر حتى بعد الموت.ومعرفة العلم يُبقي الأمة قوية عزيزة؛ فالعلم قوام لحياة الشعوب.

والتأريخ للعلوم هو مبحث مستحدث؛ الغاية منه التأصيل وتوضيح المعالم المميّزة لأي علم؛ وتتناول الدراسة التأريخية لعلم من العلوم ملابسات نشأته ومراحل تطوره وأبرز رواده وآثارهم التي تُشكل المراجع الأساسية للتعرف على هذا العلم.

وعليه فإن العلم يحمل عبر تاريخه خصائص فكرية وثقافية للبيئات التي تحتضنه والأعلام الذين عرفوا به خاصة عندما يتعلق الأمر بطور من أطوار التجديد؛ وفي ظل هذا المفهوم للعلم يُقسم صرح المعارف الإنسانية إلى بنائين ذوي طبقات: بنيان العلوم التجريبية العقلية/ وبنيان العلوم التجريدية النقلية، وتصنيف العلوم هو تقسيم المعرفة إلى أبواب وأنواع وأجناس في محاولة لبيان العلاقة التي تربط بينها مع توضيح مكان كل علم بالنسبة للعلوم الأخرى كلبنة في بناء المعرفة ككل.

3/ عوامل ازدهار العلوم في الغرب الإسلامي:

لقد شهدت بلاد الغرب الإسلامي تطورا وازدهارا فكريا وعلميا على مراحل وحقب تاريخية متعاقبة منذ الفتح الإسلامي إلى غاية القرن 9هـ/15م؛ إذ كانت الحواضر الكبرى كتونس وتلمسان وبجاية وفاس وغرناطة وغيرها تشهد نهضة علمية وفكرية وبرز من أبنائها علماء ملأ صيتهم أصقاع العالم الإسلامي أنذاك.

ومن الأمثلة على تقدير أهل المغرب الإسلامي للعلم والاعتزاز به ما أورده الرحالة"أبو الحسن علي القلصادي الأندلسي"،ت891هـ/1486م عند نزوله بمدينة تلمسان سنة840هـ/1436م قال:"وأدركت فيها الكثير من أهل العلم والزهاد، وسوق العلم حينئذ نافقة وتجارة المتعلمين رابحة والهمم في تحصيله مشرقة وإلى الجد والاجتهاد فيه مرتقية".

ومن أهم عوامل ازدهار الحركة العلمية ببلاد الغرب الإسلامي مايلي:

أ/ تشجيع السلاطين للعلم والعلماء:

مثلا بالمغرب الأوسط على عهد الدولة الزيانية اتبعت سياسة مشجعة للعلم والعلوم بنوعيها النقلية والعقلية، وعُرف عن ملوك بني عبد الواد جهودهم في دعم العلم ورعاية أهله، حيث شجعوا الفقهاء والأدباء والعلماء واستقبلوهم من مختلف الحواضر الإسلامية، من ذلك الملك يغمراسن مؤسس الدولة الزيانية شجع الحركة الفكرية والتعليمية بتلمسان ورغب رجال العلم في الوفود على عاصمة دولته وأسهم بدعم العلم والعلماء بالأموال والهدايا؛ وشجعهم على التدريس والتأليف؛ كما عمل على مجالسة الصلحاء والإكثار من زيارتهم وعقد المجالس العلمية في قصره وأظهر اهتماما كبيرا بالمذهب المالكي، وقد سار ملوك بني زيان على دربه.

وفي المغرب الأقصى في عهد بني مرين شهدت الحياة العلمية حصاد قرنين من العطاء العلمي بفضل جهود المرابطين والموحدين في مجال الثقافة والعلم والأدب وما أن جاء المرينيون حتى انطلقت الحياة الفكرية إلى آفاق أرحب وأوسع من خلال الرعاية التي أبداها أمراء بني مرين للنهضة العلمية والأدبية فبرز الكثير من العلماء وفي مختلف التخصصات؛ ولقد أصبحت فاس عاصمة المغرب الأقصى أنذاك عاصمة للفكر في بلاد المغرب الإسلامي؛ كما استقبل سلاطين بني مرين العلماء في مجالسهم على اختلاف أفكارهم وآرائهم ومستوياتهم؛ ولقد انظم كثير من هؤلاء العلماء إلى مجالس سلاطين بني مرين وشغل بعضهم مناصب كبرى في الدولة المرينية كابن خلدون–ابن الخطيب– ابن الأحمر– ابن مرزوق وغيرهم.

ونفس الشأن كان مع الأمراء الحفصيين كانوا يُحبون العلم ومجالسة العلماء فمثلا مؤسس الدولة "أبو زكريا الحفصي" كان عالما ختم كتاب المستصفى على يد الشيخ الرعيني وناظر في النحو ابن عصفور فكان قدوة لأبنائه وأفراد شعبه.

وفي الأندلس ورغم التحولات السياسية إلاّ أن المراحل التاريخية المختلفة التي شهدتها من تأسيس الإمارة الأموية على عهد ملوك الطوائف ثم الفترتين المرابطية والموحدية، ثم عهد دولة بني الأحمر بغرناطة؛ كل تلك المحطات صاحبتها إنجازات وتطور على صعيد الحياة العلمية والفكرية من خلال تشجيع الحكام للعلماء والأدباء، مثاله حاضرة غرناطة عهد دولة بني الأحمر منذ عهد مؤسسها "محمد بن يوسف بن نصر" ومن جاءوا بعده كالسلطان "أبو الحجاج يوسف بن إسماعيل" كان من أكثر ملوك بني نصر فضلا وعقلا وأبدى رغبة في أهل العلم فاستوزر لسان الدين بن الخطيب وبالغ في إكرامه، واستقبل ابن مرزوق الخطيب وشفع له عند السلطان المريني "أبي عنان فارس".

ب/ الرحلة العلمية ودورها في ازدهار العلوم بالغرب الإسلامي:

كانت الرحلة لدى علماء الغرب الإسلامي عونا كبيرا للمؤرخ وللجغرافي وذلك لأهميتها في صقل الخبرة وبيان المنهج وتأكيد المشاهدة والمعاينة للأحداث والوقائع؛ فضلا عن توسيع الأفق والمدارك فقد رحل الصحابة إلى النبي صلى الله عليه وسلم في المدينة يطلبون العلم؛ كما رحلوا في التجارة إلى مختلف الأمصار؛ فالرحلة من أهم السبل لطلب العلم؛ ولهذا فقد رحل علماء المغرب الإسلامي إلى الحج ولطلب العلم ومنهم من كانوا تجارا يبتغون من فضل الله؛ وكان لهذه الرحلات انعكاساتها على الحركة العلمية والثقافية لبلاد الغرب الإسلامي حيث ربطته بكل مستجدات عالم العلم والمعرفة؛ والاطلاع على ثقافة الآخر ونهل العلوم من مصادر متنوعة ودوام الاتصال مع مراكز العلم، وكان ذلك بعد أن يُتم التحصيل الجيد مع الفهم للعلوم ببلدانهم ثم التوجه إلى الرحلة للمشرق.

ولقد أكد ابن خلدون في مقدمته على أهمية الرحلة العلمية في تكوين طالب العلم حيث قال:"إنّ البشر يأخذون معارفهم وأخلاقهم وما ينتحلون به من المذاهب والفضائل تارة علما وتعليما وإلقاء وتارة محاكاة وتلقينا بالمباشرة؛ إلاّ أن حصول الملكات عن المباشرة

والتلقين أشد استحكاما وأقوى رسوخا، فعلى قدر كثرة الشيوخ يكون حصول الملكات ورسوخها،...فالرحلة لابد منها في طلب العلم لاكتساب الفوائد والكمال للقاء المشايخ ومباشرة الرجال"؛ ولقد ساهمت فريضة الحج في تنشيط الرحلات العلمية وتعزيز التواصل الثقافي بين بلدان المغرب الإسلامي(فهناك ركب للحجاج يخرج سنويا من المغرب الأقصى مكون من حجاج الأندلس والمغرب الأقصى مرورا بالمغرب الأوسط إلى البقاع المقدسة ويضم الكثير من العلماء وطلبة العلم، فمنهم من يقفل عائدا ومنهم من يستقر لسنوات طويلة هناك؛ كما ارتحل الطلبة بين أرجاء المغرب والمشرق الإسلامي طلبا للإجازة.

ج/ **المؤسسات التعليمية بالغرب الإسلامي ودورها في ازدهار العلوم:**

لقد تنوعت المؤسسات التعليمية بالغرب الإسلامي التي لعبت دورا في نشر الثقافة والفكر وشهدت ازدهارا وتطورا، وحظيت برعاية وإشراف السلاطين والحكام والأمراء من خلال التنافس الشديد في تشييدها والإنفاق عليها، ومن هذه المؤسسات نذكر:

1/ المساجد:

هي أكثر المؤسسات التعليمية شأنا عند المسلمين فهي مكان للعبادة وعقدت بها أيضا حلقات الدروس والتجمع حول العلماء، وظلت مستمرة في ذلك بجميع البلاد الإسلامية قبل وحتى بعد بناء المدارس في القرن5هـ/11م، ومن أشهر الجوامع التي لعبت دورا في الحياة العلمية بالغرب الإسلامي نجد خلال القرن8هـ/14م "مسجد أولاد الإمام" أسس في عهد الدولة الزيانية أنشأه السلطان"أبو حمو موسى الأول"سنة710هـ؛ وهناك أيضا: جامع القرويين بفاس ويُعرف بجامع الشرفاء أقامه إدريس الثاني سنة245هـ/859م، وتم توسيعه سنة344هـ، وأيضا جامع الزيتونة بإفريقية بناه"حسان بن النعمان" والي إفريقية سنة 79هـ/698م ثمّ أعاد بناءه" عبيد الله بن الحبحاب" عام114هـ/752م وبدءا من القرن7هـ/13م أصبح يُدرس فيه الدين والفقه والتاريخ والطب والأدب والحساب، أي أصبح مقرا للتعليم العالي ورحل إليه العلماء من المغرب والأندلس.

2/ **المدارس التعليمية:**

تعني المدرسة بناية مخصصة للدراسة في علوم معيّنة كونها في الغالب عملا وقفيا أو تابعا للدولة، ولها أنظمة خاصة؛ وقد عُرف نظام المدارس منذ القرن 4هـ بإيران وبغداد، أمّا في الشمال الإفريقي فالحديث عن المدارس الرسمية يعود إلى القرن6هـ/12م وما قبل ذلك كان عبارة عن مؤسسات خاصة لا تخضع لتوجه رسمي أو لاعتبارات مضبوطة؛ أمّا في المغرب الأوسط فقد تأخر ظهور المدرسة إلى غاية القرن8هـ/14م حيث اهتم سلاطين بنو زيان بتشييد المدارس والاعتناء بها والإشراف الشخصي على تعيين المدرسين، وكان الهدف من وراء إنشائها هو نشر التعليم والثقافة ومن أشهر المدارس أنذاك: مدرسة أولاد الإمام(وتُعد أول مدرسة أسسها بنو زيان بالمغرب الأوسط تم بناؤها بأمر من السلطان"أبو حمو موسى الأول"710هـ/1310م تحمل اسم"ابني الإمام" وهما العالمان الجليلان أبو زيد عبد الرحمان وأخوه"أبو موسى عيسى" وقد درس بها العديد من العلماء وتخرج منها العديد من الأعلام كالمقري الجد- سعيد العقباني- أبي عبد الله التنسي؛ ومن المدارس أيضا: المدرسة التاشفينية واليعقوبية ومدرسة"أبي مدين شعيب" بالعباد، ومدرسة فاس الجديدة وبنيت سنة 720هـ بأمر من الأمير المريني"علي بن أبي سعيد عثمان" ومدرسة العطارين بجانب جامع القرويين وغيرها، وفي المغرب الأدنى نذكر: المدرسة الشماعية وتم بناؤها سنة633هـ والمدرسة التوفيقية سنة 650هـ بأمر من الأميرة عطف أم الحكم المستنصر الحفصي.